سيرة العلّامة جبرائيل الصِّهيَوْنيّ الإهدنيّ وأبرز منجزاته[1]
(١٥٧٧–١٦٤٨)

أسرة الصِّهْيَونيّ ونشأته

هو من عائلة كرم الشهيرة في إهدن زغرتا، المعدولة عن عائلة "الصِّهْيَوني" العريقة في استيطانها إهدن. وقد سَمّى المؤرِّخون جدَّها الأوّل "رئيس إهدن". وقيل إنّه من سلالة صليبيّة، قدم إهدن من صِهْيَون، في بلاد العلويّين، في أواخر القرن الرابع عشر، فلُقِّبَ بالصِّهْيَونيّ وذهب لقبه اسمًا مشهورًا لذرّيته. وظلّت هذه الأسرة صِهْيَونيّة في شهرتها حتّى أوائل القرن السابع عشر، حيث اشتهر منها أبُو كرم صِهْيَون، على إجماع المؤرِّخين، وكان مِسْماحًا كريمًا غلَب اسم "بو كرم" على اسمه الحقّ لكرمه الزائد. وأهَّله الجود والتدَيّنُ، والنفوذ والوجاهة، لعطف أمير لبنان الأكبر، فخر الدين العظيم، عليه. فولّاه الحاكميّة على جبّة بشرّاي حول عام ١٦٢٤[2]. ولقد أنجبت الأسرة الصِّهيونيّة غير واحد من شخصيّات التاريخ [...].

[...] ومن هذه الأسرة العريقة ، تحت سماء إهدن الجميلة، رأى جبرائيل الصِّهْيَوني النور عام ١٥٧٧، وترعرع على فضائل والديه الوَرعَين. وقد أفادنا البطريرك الدويهي عن والد جبرائيل قال: "جبرائيل بن صِهْيَون الإهدنيّ"[3]. ويؤيّد ذلك ما درج عليه المُتَرجَم له في كتابة اسمه في اللغات الأوروبيّة هكذا: "كَبريال دي سيون، أو سيونيت، أو سيونيتا" (Gabriel de Sion, Sionite, Sionita)، أو الإهدنيّ (Ehdenensis). وتلقَّنَ صاحب الترجمة من مبادئ الدروس السريانيّة، والعربيّة، والتركيّة، قدر ما تستطيع تلقينه مدارس لبنان، إذ ذاك. تلك الدروس، على قلّة شأنها وضَيْق نطاقها، [لَفَتَتْ بصائر الرؤساء إلى مواهبه، فقرَّروا إرساله إلى رومية].

الصِّهيَونيّ في رومية: دروسه، أعماله، شهرته

كان الصَّهْيَونيّ في ربيعه السابع عندما قرَّر الرؤساء وجوب إرساله إلى عاصمة العلوم رومية المعظَّمة. وفي أواخر العام ١٥٨٣، سيَّر البطريرك سركيس الرزّي (١٥٨١–١٥٩٧) وفدًا إلى رومية [...] ليرفعَ إلى قداسة البابا غريغوريوس الثالث عشر (١٥٧٢– ١٥٨٥) عرائض الشكر على درع الرئاسة البطريركيّة. وأَصْحَبَ البطريركُ وفدَه هذا أولادًا عشرةً للتخرُّج في مدرسة رومية المارونيّة الجديدة

[1] بقلم الأب اغناطيوس طنّوس (كفرشخنا) الراهب اللّبنانيّ، مجلّة المشرق، بيروت، السنة الثامنة والثلاثون، الجزءان ٢و٣، نيسان–حزيران، تمّوز–أيلول ١٩٤٠، ص ٢٥٣–٢٥٤، ٢٥٦–٢٨٦، ٢٨٨–٢٩٦، ٣٠٣–٣٠٤.

[2] إقرأ **لبنان ويوسف بك كرم** لصديقنا العالم البحّاثة الخوري إسطفان البشعلانيّ ص ٨٢. ثمّ كتابنا **البيت الكَرَميّ في إهدن** ص ٨–٩.

[3] **تاريخ الموارنة** للبطريرك الدويهي، طبعة رشيد الشرتوني، ص ٢٠٠

آنذاك[1]، [وكان] جبرائيل الصِّهيونيّ، صاحب الترجمة، [في عِدادهم]. وكانت بعثة هؤلاء الطلّاب الثالثة من نوعها لاقتباس العلوم في رومية[2].

وصل الصِّهيونيّ جبرائيل إلى أمّ المدائن والنور في ذلك الموكب الماروني، واستسلم هناك للانكباب على الدرس والتحصيل. وقد سكتَ التاريخ السكوت كلّه عن أيّ ذكر لرجوع الصِّهيَونيّ إلى لبنان، ممّا يقيم الدليل على أنّ خروجه من لبنان إلى رومية ربّما كان نهائيًّا، وأنّ النظرة التي ألقاها من عرض البحر إذ ذاك، على جبالنا هذه العزيزة، ربّما كانت أيضًا آخر عهد له بوطنه لبنان. ذلك الوطن سترى كيف كان يقدِّسه، على أسماع محدِّثيه، عند كلّ مُؤاتِية تدعوه إلى ذكر بلاده، ويتغنّى دومًا بأمجاده، وبأنّ العربيّة هي لغته الأمّ، وبأنّه من عائلة مقدَّسة، على الرغم من هجره أهله وبلاده وهو في السابعة من عمره[3].

قضى جبرائيل على مقاعد التحصيل في جامعة البروبغنده الأعوام الطوال اللازمة لإدراك الغاية الأخيرة من المعارف الوسيعة في اللّغات والعلوم. [...] والعجيب في أنّه لم يَنَلْ شهادة دكتور في اللاهوت العامّ إلّا سنة ١٦٢٠، ولم يُرسَم كاهنًا إلّا بعد ذلك بسنتين، وذلك عقيب استيطانة باريس، كما سيجي[4]. وتضلّع في دروسه من اللاتينيّة، والإيطاليّة، والعربيّة، والتركيّة، والسريانيّة، والكلدانيّة، واليونانيّة، والعبرانيّة. وهذه الأخيرة حصل فيها على لقب رابّي (Rabbi) الخاصّ بعلماء اليهود والحاخامين [...]، ثمّ أتقنَ الفرنسيّة في باريس.

وما كاد ينهي علومه حتّى تَبوّأ المكانة العالية من الشهرة في أوساط رومية ومجالس العلماء، ونال الاعتبار والقدر الحقَّ لدى أولياء كلّيّة السبيانسة (الحكمة)، من جامعات رومية الشهيرة، فانتدبوه لتدريس العربيّة والسريانيّة في صفوفها. ثمّ انتُدب لنفس المهمَّة في مدارس البندقيّة الكبرى، فقام بكلّ ذلك القيام المشرّف، وأُعجب به رجال العلم البارزين في المدينتين، حتّى العام ١٦١٤[5] أي ما ينيف على العشرين عامًا. [...].

الصِّهيونيّ والشخصيّات الكبيرة في رومية[6]

إنّ الشهرة العلميّة الوسيعة، التي أحرز العلّامة الصِّهْيَونيّ في رومية، وصلت به شخصيّات علم وسياسة بارزة، واكتسب ثقة ذويها العالية بما كان يؤدّي إليهم من خدمات علميّة جليلة، عن تمام الكفاءة والأهليَّة. من تلك الشخصيّات الخطيرة كان الكردينال دي بيرّون (Perron)، سفير فرنسة في الفاتيكان. وقد قال الصِّهيونيّ في مقدّمتة على ترجمته اللاتينيّة لكتاب "نزهة المشتاق في ذكر

---

[1] تأسَّستْ المدرسة المارونيّة في رومية بموجب براءة أصدرها البابا غريغوريوس ١٣ بتاريخ ٣١ كانون الثاني عام ١٥٨٢.

[2] **الجامع المفصَّل** للدبس، ص ٢٩٧. ومجلّة المنارة ٦ (١٩٣٥)، ص ٦٦٢، ٦٦٦.

[3] **دائرة المعارف الكاثوليكيّة** بالانكليزيّة، طبعة نيوروك، حرف G

[4] Michaud: ***Bibliographie Universelle***, Edition II, T. 15. P.325; Jacques Le Long: ***Discours historiques sur les principales éditions des Bibles Polyglottes***, Paris, chez André Pralard, 1713, p.200.

وقد أخذنا أكثر معلوماتنا عن هذا الكتاب الأخير.

[5] **الجامع المفصَّل** للعلامة الدبس ص ٢٨٢. ودي لا روك De La Roque في كتابه ***Voyage En Syrie et au Mont Liban***، جزء ٢، طبعة باريس سنة ١٧٢٢، ص ١٢٤. والعالم هوبار (Huart) في **تاريخ العرب** ***Histoire des Arabes*** المجلّد ٢، طبعة باريس عام ١٩١٣، ص ٣٩١. ثمّ مقالًا إفرنسيًا لصديقنا العالم الخوري اغناطيوس زيادة رئيس كنيسة مار مارون بيروت، في مجلّة "فينيقية" الإفرنسية (Phenicia)، عدد ٢، (١٩٣٩)، ص ١٦.

[6] إنّ كلّ ما يلي في الصفحات التالية عن الصِّهْيَونيّ قد استقيناه من كتاب لولونغ (Lelong) من وجه ١٠٤ فيه وما بعد. وسنشير إلى مرجع كلّ نقطة هامّة فيه على ما سيأتي.

الأمصار والآفاق" للشريف الإدريسيّ: "إنّ الكردينال دي بيرّون قد أقنع مليكه لويس الثالث عشر بكفاءَتة (الصِّهيونيّ) الكبرى لتدريس العربيّة والسريانيّة في فرنسة، حيث لا يقدر أحد على ذلك"[١].

ومن أولئك الأصدقاء العلّامة الإيطالي الكبير يوحنّا المعمدان ريموندي (Raimondi) الذي عُني سنة ١٥٨٢ بترجمة التوراة وطبعها في عشر لغات: اللاتينيّة، واليونانيّة، والعبريّة، والكلدانيّة، والعربيّة، والمصريّة، والحبشيّة، والأرمنيّة، والسريانيّة، والفارسيّة، وقد كان متضلّعًا منها كلّها، وهو الذي أحيى مَواتها في أوروبّة ونشرَ لواءَها، وأوجدَ أنجع الوسائل لطبعها على أسهل الطرق وأروع المظاهر، ولا سيّما العربيّة التي كادت تبيد وتضمحلّ هناك[٢].

ومنهم أيضًا المسيو فرنسوا سفاري دي بريف (Savari de Brèves) سفير فرنسة في الفاتيكان. وكان عالمًا كبيرًا متضلّعًا من اللغات الشرقيّة ولاسيّما العربيّة. وساعده على إجادة هذه اللغات إقامته في الآستانة سفيرًا إفرنسيًّا عاليًا، أكثر من ثمانية عشر عامًا حيث تيسّر له أن يقوم برحلة واسعة في الشرق طَوال سنتين (١٦٠٥–١٦٠٧): فزار حلب، ولبنان، والقدس، والإسكندريّة، حتّى إفريقية. وصاغ مجريات رحلته هذه في كتاب نفيس طبعه عام ١٦٢٨. و أطلعه تجواله ذاك على كبير أمرٍ من التأخُّر والجهل عند النصارى، فمسّت حالتُهم قلبَه الرسوليّ الغيور وانوى مساعدتهم عند الإمكان.

وفيما هو ذاهب من إفريقية إلى فرنسة، في نهاية رحلته المعهودة، بلغه أمرٌ من مليكته، ماري دي ماديسيس، الجالسة حائذٍ على عرش فرنسة نيابةً عن ابنها القاصر الملك لويس الثالث عشر، بالذهاب إلى رومية ليكون سفيرها المفوَّض في الفاتيكان، خلفًا للكردينال دي بيرّون الآنف الذكر. ولمّا استقام له الأمر في رومية، اتّصل بالعلّامة الصِّهْيَونيّ وزملائه أعلام الموارنة هناك، أمثال: يوحنا الحصرونيّ، ونصر الله شلق العاقوريّ، وإبراهيم الحاقلانيّ. وأُولى بوادر ذلك الاتّصال أنّه عهد الى العلّامة الصِّهْيَونيّ، وإلى العلّامة نصرالله شلق العاقوريّ، بترجمة كتابَين: واحد عن الإيطاليّة إلى العربيّة هو تعليمٌ مسيحيٌّ من تأليف القدّيس بلرمينوس الكردينال اليسوعيّ، والآخر عن العربيّة إلى اللاتينيّة وهو مزامير داود. وتعزيزًا لمشروعه الرسوليّ الشرقيّ اصطنع أمثلة للحروف العربيّة والسريانيّة والفارسيّة، وأنشأ مطبعة لذلك، حمَّلها اسمه "مطبعة سَفاري". ومن بواكير تلك المطبعة كان الكتابان المذكوران اللذان خرجا من تحت ملازمها في ترجمتيَهما المذكورتَين: التعليم المسيحيّ سنة ١٦١٣، والمزامير سنة ١٦١٤، حاملَين اسم المطبعة وصاحبها، تعميمًا لفائدتهما في أبناء المسيح شرقًا وغربًا[٣].

الصِّهْيَونيّ في باريس

كان السفير دي بريف على علاقة حبيّة وثيقة بالفرنسيّ العلّامة النبيل الشهير جاك أوغست دي تو (De Thou)، رئيس محكمة باريس العليا[٤]. وكان يراسله من رومية بتواتر، مُطْلِعًا إيّاه على كل فكرة له أو عمل. وفي أواخر العام ١٦١٣، غضبت الملكة ماري دي

---

[١] كذا... عن لولونغ (Lelong) ص ١١٠.

[٢] عن لولونغ، ص ٧٤– ٨٤.

[٣] لولونغ، ١٠٤– ١٠٧.

[٤] ومن الشخصيّات المقرَّبة إلى لويس١٣. وكان مؤرّخًا خطيرًا، و أكبر معوان ونصير لأهل العلم والأدب في عصره. وُلِدَ في باريس سنة ١٥٥٣، واشتهر بقصائده الشعريّة في اللاتينيّة، وبمؤلَّفه النفيس **تاريخ زماني** (***Histoire de mon temps***). ومات عام ١٦١٨.

ماديسيس المعهودة على الكولونل أورنانو (Ornano) مهذّب ابنها الأمير كاستون (Gaston)، لمخالفته أحد أوامرها، فأقالته من منصبه، وطيَّرت أمرها إلى رومية تستدعي سفيرها دي بريف إلى باريس ليتولّى تثقيف ولدها المذكور. وإذ ذاك درى بالأمر الرئيس دي تو، فكتب إلى صديقه دي بريف يشير عليه، قبل مغادرة المدينة الأبديّة، أن يحصل على قدر ما يمكنه من مخطوطات وأصول شرقيّة، ويصطحب معه علماء أكفاء إلى باريس تنفيذًا لما ينوي إتمامه من مشاريع علميّة لإفادة الشعب. فأصاب الرأي وترًا حسّاسًا من المسيو دي بريف، وراح يُعِدُّ الأهبة لتحقيقه.

وقد مرَّ بنا أنّ الكردينال دي بيرّون كان قد زيَّن للملك جدارة الصِّهْيَونيّ العلميّة، ومقدرته على تدريس العربيّة والسريانيّة في كلّيّة باريس، وأقنعه بوجوب استدعاء ذلك العالِم الماروني من رومية لإملاء المركز الشاغر، منذ العام ١٦١٢، مركز العلَّامة إسطفان هوبر (Hubert) الذي أوفده الملك حينئذٍ إلى مراكش لإشغال منصب إفرنسيّ فيها. فأرسل جلالته أمرًا الى السفير دي بريف يُوجب عليه، قبل أن يبرح رومية، أن يتوسَّل بالإلحاح اللازم لدى البابا بولس الخامس (١٦٠٦–١٦٢١) ليأذن للعلاَّمة الصِّهْيَونيّ في السفر إلى باريس للغرض المتقدّم. فقام السفير بأمر مليكه المطلوب، واستحصل من قداسة البابا المذكور رخصةً للصِّهيونيّ، ولرفيقٍ معه، هو يوحنّا الحصروني الآنف الذكر، بمرافقته إلى باريس والتقيُّد بخدمة لويس الثالث عشر.

وما أشرفَ العام ١٦١٤ على أيّامه الأخيرة حتّى غادر علَّامتنا رومية لاستيطان باريس، بعد أن قضى في المدينة الأبديّة إحدى وثلاثين سنة (١٥٨٣–١٦١٤). ووصل باريس صحبة صديقه دي بريف ووطنيّه المعهود. فاستقبلهم العلَّامة دي تو، والكردينال دي بيرّون بكثير من الفرح والترحاب، ووفَّرا للصِّهْيَونيّ ورفيقهِ على السكنى والمعاش بما أمكن.

وبعد مقابلة جلالة الملك ووالدته، تعيَّن الصِّهْيَونيّ أستاذًا ملكيًّا (Professeur Royal) للسريانيّة والعربيّة في جامعة السوربون الملكيّة في باريس، خلفًا للعلَّامة هوبر المذكور. وضمانة لمعاش الصِّهْيَونيّ وراحته مع رفيقه الحصروني، وتسهيلًا للنفع والجدوى في مهّمتهما، حمل المسيو دي بريف، بوساطته، الملك ووالدته على تعيين معاش رسميّ لصديقَيه المارونيَّين قدره ستمائة ليرة[1] لكلّ منهما في السنة، وذلك بموجب براءَة [خطّيّة رسميّة صادرة عنهما بتاريخ ٢٤ كانون الثاني عام ١٦١٥][2].

الصِّهْيَونيّ وبوليكلوت باريس: فكرة البوليكلوت وتطوّراتها

إنّ المساعي الحثيثة التي بُذلَتْ، لنقل الصِّهْيَونيّ من رومية إلى باريس، قد كوّنتها فكرتان خطيرتان: الأولى تدريس العربيّة والسريانيّة في كلّيّة باريس الملكيّة، على ما تقدّم بيانه. والثانية، وهي الأخطر والأهّم، مشروع ترجمة الكتاب المقدّس إلى عدّة لغات، ونشره مطبوعًا فيها، وهو ما يسمَّى "بوليكلوت" (Bible Polyglotte أي الكتاب المقدّس في عدّة لغات). ولم تكن فرنسة سبّاقة مبتكرة في مشروعها "بوليكلوت باريس"، فقد سبقتها ممالك عديدة إلى نشر الكتاب المقدَّس مطبوعًا في عدّة لغات. فإنّ إسبانية قد طَبَعَتْ

[1] تحوّلت ليرة ذلك العهد إلى الفرنك الذهبيّ اليوم في فرنسة.

[2] [تُراجع ترجمة هذه البراءة إلى العربيّة على الصفحتين ٢٦٣–٢٦٤ من مقالة الأب اغناطيوس طنّوس .أمّا نصّها الفرنسيّ فمُثْبَتٌ في لولونغ Lelong، ص ٣٩٥–٣٩٦].

البوليكلوت مرّتين، الأولى (١٥١٤–١٥١٧) في اليونانيّة، والعبريّة، والكلدانيّة، واللاتينيّة، على نفقة وإدارة الكردينال كزيمينيس (Ximenés) وزير إسبانية الأكبر، الذي شغّل في ذلك علماء جامعة ألْكالا (Alcala)؛ والثانية (١٥٦٨–١٥٧٢) على نفقة واهتمام الملك فيليب الثاني، ويسمّيها التاريخ "بوليكلوت إنفيرس"، ولغاتها العبريّة، والسريانيّة، والكلدانيّة، واليونانيّة، واللاتينيّة.

وفي إيطالية طُبِعَتْ البوليكلوت مرّتين أيضًا: الأولى (١٥١٤–١٥١٧)، ولغاتها اليونانيّة، والكلدانيّة، والعربيّة، واللاتينيّة. والطبعة الثانية أحدثها العلّامة ريموندي الآنف الذكر، في لغات عشر مرَّ بنا بيانها. ثمّ في البندقيّة عام ١٥١٨.

وطَبَعتْ ألمانية البوليكلوت ثلاث مرّات: أولًا عام ١٥٨٦في العبريّة، واليونانيّة، واللاتينيّة؛ ثانيًا عام ١٥٩٦ في اليونانيّة، واللاتينيّة، والألمانيّة، ثالثًا عام ١٥٩٩ في ١٢ لغة هي: السريانيّة، واليونانيّة، والعبريّة، والإيطاليّة، والإسبانيّة، والإفرنسيّة، واللاتينيّة، والألمانيّة، والبوهيميّة، والإنكليزيّة، والدانيمركيّة، والبولونيّة.

وطبعات غير هذه يربو عديدها على السبع عشرة طبعة ضاق مقامنا هذا عن تعدادها. وقد فصّلها الأب العالم لولونغ في كتابه المذكور، ص١–٢٧٦.

هذه المشاريع العلميّة القدسيّة قد عزّ على فرنسة أن لا تجاري فيها تلك الممالك أو تفوقها [...]، وهي حامية الدين والكنيسة في كلّ العصور، ولاسيّما في عصر علّامتنا الصِّهْيَونيّ. لذلك هبّت تسدّ في تاريخها تلك الثغرة الهامّة بعناية واهتمام شخصيّاتها الثلاث: دي بيرون، ودي بريف، ودي تو، المعهودِين أصحاب الفكرة الأولى في بوليكلوت باريس، وأصدقاء الصِّهْيَونيّ المعجبِين بمواهبه، والواثقِين بمقدرته على تحقيق فكرتهم في مشروعهم العزيز. وسنرى أنّ علّامتنا هذا عرف كيف يكون عند ثقة قاديه وإعجابهم، فحقّق "مشروع فرنسة" على رغم ما تصدَّى له من عراقيل ومصاعب واضّطهادات وبلايا، تغلّب عليها وأتى العمل يستهوي به أنظار أوروبّة في ذلك العهد، وجعل العلماء يفضّلونه على كلّ ما سبق من أمثاله، حتّى على كل من بوليكلوت الكردينال كزيمينيس وإنفيرس المعهودَتين، ويستصغرون، حيال طبعه الفنّيّ المُتقَن وورقه الجميل الصقيل، مجهودات ونفقات وزير إسبانية الأكبر ومليكها العظيم. ولذلك حَقَّ لفرنسة الفخار به على وجه الدهر، كما سيتبيّن بالتفصيل. أمّا فكرة البوليكلوت الباريسيّة الصِّهْيَونيّة المارونيّة، وطلائع العمل على تحقيقها، فقد تكوّنت منذ العام ١٦٠٦، حين أَولى عظماء الفرنسيس، الأعلام الثلاثة، ثقتهم وطنيّنا الصِّهْيَوني بعلمه وكفاءَته. فجرت عام ١٦٠٦ المذكور مباحثات عديدة طويلة في ذلك الشأن للكردينال دي بيرّون، سفير فرنسة في الفاتيكان حالئذٍ، مع العلّامة الإيطاليّ الكبير يوحنّا المعمدان ريموندي الآنف الذكر. وكان ذلك الكردينال السفير قد أوشك أن يبدأ في المشروع، لولا أنْ شُغِل عنه بمغادرة منصبه نهائيًا في أواخر العام ١٦٠٧، وخلَفَهُ فيه المسيو سفاري دي بريف، كما سبق ذكره.

وما تولّى دي بريف منصبه الجديد في رومية حتّى أَقبل عليه العلّامة ريموندي يفاتحه بما كان قد حادث به سلفه الكردينال دي بيرّون. فأصابت تلك المفاتحة موقع الشعور والاقتناع من السفير دي بريف. ثمّ جاءَته نصائح ومشورات صديقه العلّامة الرئيس دي تو، فزادته

يقينًا وثباتًا وغيرة. ولمّا سافر إلى باريس عام ١٦١٤، مصحوبًا بالصِّهْيَونيّ ورفيقه الحصرونيّ، أَخذ معه أيضًا مطبعته وكثيرًا من المخطوطات الشرقيّة، مِن نسخِ الكتاب المقدّس وغيره. ويقول وطنيُّنا الصِّهْيَونيّ إنّ تلك المخطوطات أَنعمَ بها على دي بريف البابا بولس الخامس المذكور[١]. أمّا مُترجِمُنا الصِّهْيَونيّ فبعد أن استتبّ أمره في باريس، واعتنق مهمّته التدريسيّة في جامعتها الملكيّة، استهلّ عمله أوّلًا بكتاب أصول نحويّة عربيّة (غرامطيق) نشره مطبوعًا بمشاركة رفيقه الحصرونيّ. ولتعريف ذلك الكتاب إلى الأوساط الباريسيّة، رفعاه تقدمةَ شكر وإخلاص إلى صديقَيهما الكبيرين الكردينال دي بيرّون والرئيس جاك دي تو قائلَين، في مقدّمته المؤرّخة في ٧ كانون الثاني عام ١٦١٦، أنّهما قدَّما باكورة جهادهما في باريس إلى "الرجلَين الكبيرَين" إقرارًا بمجهوداتهما الجهيدة لطبع التوراة في عدّة لغات. وراح الصِّهْيَونيّ، وإلى جنبه رفيقه الحصرونيّ، يواصل الترجمة والتحبير والدروس والمقابلات، في غمارٍ من أضابيرِ المخطوطات، كتبًا وأوراقًا. وذلك ما جعل المسيو جاك دي تو يتهلَّل طربًا لاعتقاده أنّه بلغ النجاح المبين في فكرته العزيزة. فأقبل على صديق له كان مدير المكتبة الإمبراطوريّة الإفرنسيّة، يُبشّرُه بالأمر في رسالة تاريخها ٣ أيّار عام ١٦١٥ قال فيها :"... إنّ الهمم مبذولة اليوم لطبع التوراة في عدّة لغات... وإنّ الكردينال دي بيرّون هو الساعي لذلك، وقد انتدبني أنا لهذا المشروع..."[٢].

الأيّام تناوئ الصِّهْيَونيّ في مشروعه

بيد أنّ الأيّام ما عتمت أن خلقت للصّهْيونيّ ما اضطرّه إلى تطوير خطّته وتغيير سيره في العمل، وذلك أنّه فُجِع بموت حليفه الغيور، السيد جاك دي تو في ٧ أيّار سنة ١٦١٧. فكان ذلك كالصاعقة على علّامتنا شلّت يده في العمل. ثمّ رأى أيضًا أنّ الترجمة من السريانيّة إلى اللاتينيّة تتعذَّر عليه، لعدم توفّقه لنسخة للكتاب سريانيّة يُرْكَن إلى صدق نصّها. وقد كان سعى في رومية، مع صديقه دي بريف المعهود، ليحصل من ذلك على نسخة سريانيّة هي عند كلِّ ثقته وارتياحه، كانت محفوظة إذ ذاك في المكتبة الفاتيكانيّة، وقد خطَّها المطران سركيس الرزّي مطران دمشق[٣]، وحملها بنفسه إلى رومية عام ١٦٠٦، وقدَّمها إلى البابا بولس الخامس تهنئةً له بجلوسه جديدًا على العرش البطرسيّ، وذلك نيابةً عن أخيه البطريرك يوسف الرزّي (١٥٩٧–١٦٠٨)؛ وقد قدَّم معها إلى قداسته عدّة تقادم أُخَر. فضنَّ البابا بتلك النسخة السريانيّة لشدَّة صدقها، وعدم نظيرها، وأبى أن يسلِّمها إلى دي بريف أو صديقه الصِّهْيَونيّ، بل إذدخرها أثرًا نفيسًا عزيزًا للمكتبة الفاتيكانيّة، ومَنَعَ أيًّا كان عن الحصول عليها.

---

[١] لولونغ، ١٠٩.

[٢] لولونغ، ١٠٥.

[٣] هو أخو البطريرك يوسف الرزّي. وأبوهما موسى أخو البطريركين مخايل وسركيس الرزيّين (١٥٦٧–١٥٩٧). ومن رهبان دير قزحيّا ورئيس محبسته، ومن تلاميذ رومية. رسمه أخوه المذكور مطرانًا على دمشق عام ١٦٠٠، وأوفده إلى رومية عام ١٦٠٦، لتقدمة الطاعة باسمه وتهنئة بولس الخامس بالعرش الرسوليّ. فاشتغل هناك بالمناظرة على طبع الكتب الطقسيّة المارونيّة مثل: كتاب القدّاس، وخدمته، والشحيم، وغيرها... وترجم التوراة العربيّة إلى اللاتينيّة وطبعها بهما معًا في ثلاثة مجلّدات. ووقف مخلّفاته على إسعاف طائفته، وتُوفّي في رومية عام ١٦٣٨ (المشرق عام ١٩٢٢، ص ٧٢٥).

ويقول الأب لولونغ: "إنّ مطران دمشق المرحوم قد نسخ هذا الكتاب المقدَّس ستّ مرّات بالسريانيّة، ثمّ اشترى نسخته هذه الفاتيكانيّة الأب موران بثمن ٩٦ ريالًا إفرنسيًّا، ونال بشرائها شرفًا عظيمًا. وهذا الثمن رخيص جدًّا نسبةً إلى قيمة النسخة الثمينة من كلّ وجه"[١].

عند ذلك رأى الصِّهْيَونيّ أن يقتصر في عمله على ترجمة الكتاب من العربيّة فقط إلى اللاتينيّة، وبطبعه فيهما معًا. وفي تلك السنة عينها قام أحد علماء فرنسة، المسيو ملكيور ماديري (Melchior Madere) أستاذ العربيّة أيضًا في باريس، ولفَظَ محاضرةً ممتعة عن روعة اللغة العربيّة وعظمة فوائدها، أمام حشد حافل، واستشهد على صدق خطابه بعمل الصِّهْيَونيّ ورفيقه الحصرونيّ. قال: "...وإنّ العالمَين المارونيَّين، جبرائيل الصِّهْيَونيّ ويوحنّا الحصرونيّ من جبل لبنان، آخذان اليوم بإخراج التوراة من العربيّ إلى اللاتينيّ، وعمّا قريب سيطبعانها بهذين اللسانَين..."[٢].

وفي تلك السنة نفسها أيضًا (١٦١٧) بدا للصِّهْيَونيّ، تدقيقًا في العمل الخطير، أن يعود إلى رومية لإجراء بعض التمحيصات والمقابلات في ما لديه من وثائق وأصول خطّيّة. فقصد أمّ المدائن لاحقًا برئيس أساقفة أوش الإفرنسيّة. وحالما فرغ من مهمّته هذه عاد إلى باريس يواصل العمل[٣].

وعام ١٦١٨، حين تبيّن الملك لويس١٣ بأكثر جلاءٍ مجهودات الصِّهْيونيّ الجهيدة في التدريس والتأليف والترجمة، أنعم عليه بمحلّ سكن، وبمرتَّب إضافيّ سنويّ، قدره ألفا ليرة أيضًا. وقد أقرَّ ذلك وحقَّقه في براءة ملكيّة[تاريخها ١٧ كانون الثاني عام ١٦١٨][٤].

وفي سجلّات الكرسيّ البطريركيّ أثَرٌ خَطّيّ للملك لويس الثالث عشر يتعلّق بالصِّهْيَونيّ والحصرونيّ. وهو عبارة عن ترجمة عربيّة لمرسوم أصدره الملك المذكور في نفس التاريخ الذي يحمله المرسوم السابق. وقد ترجم نصّ هذا الأثر العربيّ إلى الإفرنسيّ المسيو رستلهوبر، قنصل فرنسة في بيروت سابقًا، وأثبت ذلك في كتابه الإفرنسيّ "***Traditions françaises au Liban*** **تقاليد فرنسة في لبنان**" وجه ٣٢٦[٥].

إلّا أنّ الله سبحانه وتعالى شاء أن ينغّص على علّامتنا الصِّهْيَونيّ لذّة ذلك العطفِ الملكيّ والأَيْدِ السامي، فامتحنه ثانية بوفاة مؤيّده ونصيره الكبير الكردينال دي بيرّون في ٥ أيلول سنة ١٦١٨. فكان ذلك مصيبة عليه جديدة نظير محنته بوفاة العلّامة دي تو. ثمّ ناوأه

---

[١] لولونغ، ٤٧٣.

[٢] لولونغ، ١١١ و ١١٢.

[٣] لولونغ، ١١٢.

[٤] يُراجع نصّ هذه البراءة في لولونغ، ص٣٩٦ و٣٩٧. وتُراجَع ترجمتها العربيّة في مقالة الأب اغناطيوس طنّوس اللبنانيّ في: مجلّة المشرق، السنة ٣٨، الجزءان ٢ و ٣، نيسان– حزيران ، تمّوز– أيلول ١٩٤٠، ص ٢٦٨–٢٦٩.

[٥] [تُراجع الترجمة العربيّة لمرسوم الملك لويس ١٣ المحفوظة في سجلّات الكرسيّ البطريركيّ الماروني في بكركي، والترجمة العربيّة عن نصّ رستلهوبر الفرنسيّ في كتابه المذكور في مقالة الأب اغناطيوس طنّوس اللبنانيّ في مجلّة المشرق، السنة ٣٨ ، الجزءان ٢و٣، نيسان–حزيران، تمّوز–أيلول١٩٤٠، ص ٢٦٩].

الدهر بمحنة أخرى هي اختلافه مع المسيو دي بريف. وذلك أنّ ما عَرَضَ للمترجَم من صعوبات ورواح ومجيء بين باريس وروما، اضطرّه إلى هدر كثير من الأيّام على غير جدوى، فنال ذلك من صبر دي بريف، وولّد فيه نفورًا قويًّا من الصِّهْيَونيّ أدىَّ به، عام ١٦١٩، إلى إهمال المشروع والعدول عنه نهائيًّا، وقد ساعد أيضًا على ذلك موت دي تو ودي بيرّون، نصيرَي المشروع وحامِيَيه.

أمّا الصِّهْيونيّ، ورفيقه الحصرونيّ، فلم يفتَّ ذلك الموقف في عزمهما وهمّتهما، بل لجأا إلى مجمع الإكليروس الفرنسيّ، وقد كان منعقدًا إذ ذاك في مدينة بلوى (Blois)، ورفعا إليه أمرهما في عريضة ضُمِّنَتْ ما ترجمته بالحرف، قالا:

"إنّ المسيو دي بريف جاءَ بنا من رومية إلى باريس لنترجم التوراة من العربيّ فقمنا بالعمل وصرنا على وشك الفراغ منه. ونحن لا نبغي لقاء ذلك غير ضمانة تعبنا من أن يذهب عبثًا غير مثمر. بل نطلب أن يُطْبَع الكتاب لإفادة الشعب وخير الكنيسة ومجدها. ولذلك جئنا نسأل مجمعكم الموقَّر العون والمساعدة على إخراج ترجمتنا إلى النشر والطبع".

فَرَاقَ ذلك المجمع سؤال العالمين المارونيَّين، وقرر لهما اعتمادًا ماليًّا قدره ثمانية آلاف ليرة (٤٠٠ ليرة ذهب اليوم) للإنفاق على مشروعهما. ودوَّن المجمع ذلك التدبير في محضر جلساته الرسميّة المثبت برمّته في الصفحات: ٣٦٣–٣٦٦ من كتاب لولونغ الذي بين يدينا.

على أن تلك المنحة قد قيَّدها المجمع بشرطٍ، هو أن يكون طبع الكتاب تحت إشراف وإدارة لجنة من أعضائه. وعيَّن أن يؤخذ ذلك الاعتماد من أرباح كتب الألحان، وبعض كتب من تآليف القدّيس يوحنّا فم الذهب التي طبعها المجمع على نفقته بإدارة عالم يسوعيّ اسمه الأب فرنتون دي دوك [...][1].

الصِّهْيَونيّ كاهن ودكتور

أجمع المؤرّخون الذين ضُمِّنَتْ آثارهم بين تضاعيفها ذكريات عدّة للصِّهْيونيّ أنّه حصل على رتبة دكتور في اللاهوت من جامعة البروبغندة في رومية عام ١٦٢٠. وأنّه عُقِيْبَ ذلك بسنتين ارتسم كاهنًا. وكان في هذا الإجماع إغفال لذكر ما إذا كان الصِّهْيونيّ رجع ثانيةً من باريس إلى رومية لإحراز شهادة الدكتوراه أم لا. مع أنّ الأب لولونغ لم يذكر للمترجَم عودةً ما من باريس إلى رومية إلّا عام ١٦١٧، وذلك لتمحيص الوثائق والمعلومات الخطّيّة، كما مرّ بنا ذلك منذ قليل. أمّا نحن فنعلّل أنّ المترجم اضطرّ، ولا ريب، أن يقصد إلى رومية خاصَّة لإحراز تلك الشهادة، فإنّ منْحَها موقوفٌ دائمًا على النجاح في امتحانٍ كتابيّ ثمّ شفهيّ خاصّ بالدكتوراه. أمّا رسامته الكهنوتيّة فتاريخ حدوثها يصعب تعيينه. ولقد كان على خطَل جميع الذين جزموا أنّها حدثت بعد صيرورة الصِّهْيَونيّ دكتورًا. فإنّ مؤتمر الإكليروس الفرنسيّ المعهود عندما يشرح، في محضر جلساته الآنف الذكر المؤرّخ عام ١٦١٩، عن تخصيصه ألفَي ليرة

[1] [تُراجَع الترجمة الحرفيّة إلى العربيّة لنصّ ما قرّره المجمع المذكور في مقالة الأب طنّوس المنشورة في مجلّة المشرق، مرجع سابق، ص ٢٧٠– ٢٧١].

لمساعدة الصِّهْيونيّ ورفيقه، يسمّيهما من الآباء إذ يقول:" وصلتنا عريضة الأبوَين المارونيَّين جبرائيل الصِّهْيونيّ ويوحنّا الحصرونيّ..."[١]. إذن إنّ رسامة المترجَم ورفيقه كاهنَين قد وقعت حتمًا إمّا عام ١٦١٩ أو قبل ذلك.

الصِّهْيَونيّ وحده في باريس

في العام ١٦٢٢ ترك الأب يوحنّا الحصرونيّ باريس نهائيًّا وعاد إلى رومية، ومنها إلى لبنان، لمهام الكنيسة والطائفة كما تقدَّم. وظلّ الصِّهْيَونيّ في عاصمة الفرنسيس يعايش شخصيّاتها الوجيهة، ويلامس رجالاتها الأفذاذ في قصر لويس الثالث عشر، صامدًا في ميدان الجهاد، يجابه المصاعب والنوائب ومناوآت الخصوم الأقوياء التي أفضت به إلى السجون، كما سيجيء. وذلك ما حمل مؤرِّخي عصره، حتّى أعداءَه الأقوياء، أن يضعوه في المرتبة الأولى بين زملائه. وقد قالت دائرة المعارف الكاثوليكيّة بالإنكليزيّة، طبعة نيويورك، حرف "g": "... وكان الصِّهْيونيّ أسمى من الحصرونيّ وأشهر...(كذا)".

ويقول الأب لولونغ، في صفحة ١١٥ من كتابه:" إنّ الصِّهْيونيّ أناخ عليه الدهر بمرض شديد الوطأة ألزمه الفراش طريحًا مدّة سنتين كاملتين، حتى أمعن فيه الهزال أيَّ إمعان". لكنّه ما كاد يستعيد قسمًا من الصحّة والقوّة سنة ١٦٢٥، حتّى طَلَعَ على العالم بكتاب "مزامير دواد" مطبوعًا بالسريانيّة وترجمتها اللاتينيّة التي من قلمه. وقد اعتمد في عمله هذا مخطوطات سريانيّة ثلاث أهداه إحداها صديقه السيّد جورج مارونيو، مطران نيكوزية أو لفكوسية عاصمة قبرس. وممّا قال في مقدّمته، إن هذا كتاب المزامير، والترجمة اللاتينيّة التي أخرج إليها كتاب "نزهة المشتاق..." وهو المعروف بجغرافية نوبية للشريف أبي عبدالله محمّد الإدريسيّ، قد طبعهما من ماله الخاصّ، شاكيًا متذمّرًا إذ ذاك من الذين تولّوا أمر الاعتماد الماليّ الذي منحه المؤتمر الإكليركيّ المعهود كما تقدّم. وقال أيضًا: إنّه لو توافرت له الوسائل وسَعَةَ الحال، حاظيًا ببعض الحماة والأنصار، إذن لأمكنه أن يجعل اللغات العربيّة والسريانيّة واليونانيّة والعبريّة تسير سواء منشورة اللواء في جميع أنحاء أوربّة[٢].

محاولته ترك باريس

وتوالت الأزمات على مترجَمِنا تحرج موقفه في باريس وتشدّ عليه الخناق، إذ تضاءل عدد تلامذته حتّى أصبح مركزه التدريسيّ شاغرًا عام ١٦٢٦، لعدم وجود طلّاب يختلفون إليه. فأدّى به ذلك إلى قطع المعاش التدريسيّ عنه، وأوقعه في شبه نكبة جعلته من الفاقة والعوز في مساس، فأخذ يؤثر الرجوع إلى رومية. وقد أَطْلَعَ على أمره هذا أصدقاءَه القادرين قدره في رومية فبادروا الى اغتنام الفرصة ليربحوه، ورفعوا عرضًا ضافيًا بالتوسُّلات إلى لويس ١٣ على يد الكردينال سبادا (Spada)، والسفير البابويّ في باريس السيد بَنْيي (Bagny) يلتمسون ترخيصًا من جلالته للصِّهْيَونيّ صديقهم بالذهاب إلى رومية، حيث تدعو إليه حاجة ماسّة، فيشتغل ثمّ بترجمة التوراة العربيّة إلى اللاتينيّة والإيطاليّة، وقد بدأ البابا أوربانوس الثامن (١٦٢٣–١٦٤٤) يُعنى بها منذ سنتين.

[١] لولونغ، ص٣٦٣ وما إليها.

[٢] لولونغ، ص١١٥.

أمّا ملك فرنسة فلم يجد مانعًا من النزول عند طلب أولئك العلماء. فأصدر مرسومًا ملكيًّا تاريخه ١٢ حزيران عام ١٦٢٧ أذِن فيه للصِّهْيونيّ بالشخوص إلى رومية لمدّة معلومة. وطمعًا بترجيعه إلى باريس لاستئناف الإفادة من علومه، أغراه بإعادة المعاش الذي حُذِفَ حينذاك، وأمر بمنحه إيّاه مدّة غيابه في رومية، كما لو كان موجودًا في باريس[١].

عند هذه التدابير، قام الصِّهْيونيّ يلبيّ طلبَ أصدقائه رجالات رومية والكثلكة، وأَمْرَ جلالة الملك. [وما كاد خبر رحيله] ينتشر في الأوساط الباريسيّة حتّى شعر القوم بالفراغ الذي سيجابهون،[...] فهبّوا يتلافون ذلك وبذلوا المساعي الجدّيّة فحملوا مجلس المحاسبة في الحكومة على التصدّي لتنفيذ تلك الرخصة الملكيّة. وما زالوا بالصِّهْيَونيّ يبذلون جهودهم في إرضائه حتّى أقنعوه بالبقاء في باريس يستأنف جهاده في التدريس والتحبير.

العودة إلى فكرة البوليكلوت وتجدُّد العزم على تحقيقها وتوسيع مشروعها

بينا كان الصِّهيوني على تلك الوضعيّة في باريس، اتّصل بأحد المحامين اللامعين في البَلاط الملكيّ، المسيو غي ميشال لجاي (Guy Michel Le Jay)[٢]، وأخذ يزيّن له الفوائد الجلّى المادّيّة من طبع البوليكلوت على نفقته، مستعينًا عليه بترغيبات كثير من زملائه العلماء. وقد قدَّر له تلك الأرباح بأربعمائة ألف ليرة[٣]، فضلًا عن أنّ المجد الذي عجز عن تحصيله من ذلك المشروع دي تو، ودي بيرّون، ودي بريف، سيخلّده التاريخ للسيّد ميشال لجاي.

[وعلى الرغم من الصعوبات الكثيرة التي كانت تعترض سبيل تنفيذ هذا المشروع، وتجعل "لجاي" يُحْجِمُ عن الإقدام على المباشرة فيه، فقد اقتنع في النهاية] بوجوب البذل على مشروع البوليكلوت الباريسيّة. وبذلك أحيا تلك الفكرة الخطيرة من جديد، بعد نومها الطويل العميق، [...]، وأقبل المسيو لجاي على إتيان المشروع هازئًا بتلك الصعوبات.

تحقيق مشروع البوليكلوت: ماجرياته، هوّيّته، لغاته، رجاله

أوّل ما بدأ به "لجاي" أنّه ائتجر طبّاعًا ماهرًا اسمه أنطوان فيتري (Vitré)، وأمره بإعداد كلّ ما يلزم لطبع البوليكلوت. فتجنّد فيتري للعمل، واصطنع الحروف العربيّة، والكلدانيّة، واليونانيّة، واللاتينيّة، عند سبّاك شهير يُدعى بي (Bé) قد ورث الفنّ عن أبيه الذي اعتمده فيليب الثاني ملك إسبانية في ضرب الحروف لبوليكلوت أنفيرس التي أنفق عليها جلالته كما سبق ذكره. أمّا الحروف السامريّة فسبكها الفنّان جاك سانليك (Sanlecques). وأمّا الحروف العربيّة والسريانيّة فقد ضُرِبَ معظمها عن أمثلة الصِّهيونيّ وقوالبه التي

---

[١] تُراجَع الترجمة العربيّة للمرسوم الملكيّ بهذا الشأن على الصفحتين ٢٧٣–٢٧٤ من مقالة الأب طنوس المنشورة في مجلّة المشرق، المجلّد المشار إليه.

[٢] شخصيّة فرنسيّة نافذة، وثريّ، ووجيه كبير، ومحامي البرلمان الفرنسيّ. وُلِدَ عام ١٥٨٨ من عائلة نبيلة. كان قديرًا على تحقيق المشاريع الكبرى التي منها مشروع بوليكلوت باريس الحاملة اسمه. ومكافأةً له عن ذلك عيّنه الملك عضوًا في مجلس شورى الدولة، ومنحه امتيازات عالية، وراتبًا ضخمًا، وذلك عام ١٦٤٦ ومات في ١٠ تمّوز عاو ١٦٧٤. وقد أنفق على البوليكلوت ثلاثمائة ألف ليرة (عن لولونغ في نقاط مختلفة). والعلّامتان المطران الدبس والأب لويس شيخو اليسوعيّ يَعدّانه كاهنًا فيسمّيانه "الأب أو الخوري لجاي": طالع **الجامع المفصّل** ٣٨٢ والمشرق ٣[١٩٠٠]٨٣.

[٣] لولونغ، ص ١١٨.

صاغها. وقد ضُرِبَت عليها، قبلئذ، كمّيّات كبرى من الحروف اشتُهرت " بالأحرف الصِّهْيَونيّة"[١]. أمّا الورق فقد أنشئت له فبركة خاصّة أنتجَتْ منه أجمل صنف عُرف إلى ذلك العهد، واشتُهر "بالورق الملكيّ" (Carta Imperialis)[٢].

وفي شهر آذار عام ١٦٢٨ شرع أنطوان فيتري يُخْرِجُ البوليكلوت الباريسيّة مطبوعة حصصًا ومراحل، حسبما كان الصِّهْيَوني وزملاؤه يجهّزون له الموادّ، وذلك بلغاتها السبعُ: العبريّة، السامريّة، الكلدانيّة، اليونانيّة، السريانيّة، العربيّة، حاويةً أيضًا ترجمة لاتينيّة خاصّة لكلّ من هذه اللغات على انفراد، ممّا جعل الكتاب يجيء في عشرة مجلّدات ضخمة، وكلّها في حلّة مطبعيّة رائعة أتَتْ زينة ذلك الزمان، ومنتهى فنّ الطباعة فيه. وقد اقتضت مدّة الطبع سبعة عشر عامًا (١٦٢٨–١٦٤٥) بسبب مشاكل واختلافات عنيفة وقعت بين الصِّهيوني ولجاي سنفصّلها في موطنها القريب.

وقد أُطْلِقَتْ على الكتاب عدّة أسماء: "بوليكلوت لجاي"، و"بوليكلوت باريس"، و"البوليكلوت الكبيرة"، و"بوليكلوت فيتري". على أن اشتهارها بالاسمَين الأوّلَين عمَّ جميع أوساط التاريخ والعلم. وكان للصِّهْيَونيّ زملاء أعوان في هذا المشروع، وهم شخصيّات علميّة شهيرة، ومن أخلص الأصدقاء والمؤيّدين له [...].و كان أيضًا للمشروع أنصار كُثُر من شخصيّات فرنسة الوجيهة وأعلامها النبلاء، تولّوه برعايتهم وحمايتهم وآرائهم ونصائحهم ومساعداتهم وتشجيعاتهم من وجوه شتّى[٣].

قسط الصِّهْيَوني في بوليكلوت "لجاي" الباريسيّة

كان للصِّهْيَونيّ القسط الأوفر، والتفوّق الأكبر فعليًّا وأدبيًّا على أنداده وزملائه العظماء في ذلك العمل، ممّا نصّبه دومًا المحور الأهمّ الذي دار حوله المؤرّخون في كلامهم عن بوليكلوت باريس. وحصَّة قلمه وجهاده في هذه البوليكلوت تكوّن خمسة مجلّدات ضخمة تنطوي جميعها على ثلاثة الاف ومائة وثلاث وثمانين صفحة[٤].

على أنّ الصِّهْيونيّ يدّعي، في دفاعه، أنّه طبع من شغله وتعبه ستّة مجلّدات من بوليكلوت باريس الكبرى، وأنّ كلّ مجلّد ذو سبعمائة صفحة. فيكون مجموع صفحاته التي رقشها قلمه في تلك البوليكلوت أربعة الآف ومائتي صفحة. وقد أقرَّ علّامتنا على ادّعائه الأب جاك لولونغ[٥]. واقتضى عمل الصِّهْيَوني هذا سبع عشرة سنة (١٦٢٨–١٦٤٥).

أمّا شغل الصهيوني في هذه المجلّدات فكان قوامه وضع ترجمة لاتينيّة خاصّة لكلٍّ من النصَّين السريانيّ والعربيّ، وإصلاح مسوّدات طبعها، وتجهيزها جميعها بالحركات والنقط الشكليّة الأُصوليّة للنصَّين المذكورَين، ثمّ وَضَعَ لهما، في جميع مجلّداته المعهودة، حواشيَ

[١] لولونغ، ص ١١٨–١١٩.

[٢] لولونغ، ص ١١٩.

[٣] حول هذه الشخصيّات العلميّة الشهيرة، ومقدار إسهام كلٍّ منهم في مشروع الترجمة، وحول الشخصيّات الفرنسيّة النافذة، والنبلاء الذي شملوا المشروع برعايتهم، تُراجع الصفحتان ٢٧٧–٢٧٨ من مقالة الأب طنّوس في مجلّة المشرق، المجلّد المُشار إليه.

[٤] وحول هذه المجلّدات الخمسة، وعدد صفحات كلٍّ منها، ومضمونه، ومسائل أخرى متعلّقة بها، تُراجع مقالة الأب طنّوس ذاتها، في مجلّد مجلّه المشرق ذاته، ص ٢٧٩–٢٨٠.

[٥] لولونغ، ٤٠٥

وملاحظات غراماطيقيّة أُصوليّة هامّة. وهو الذي ضبطَ نصوصَها ونسخَها الأصليّة الصالحة للاعتماد في المشورع القدسيّ الخطير. واضطرّته دقّته المعهودة، في كلّ أعماله العلميّة وغيرها، أن ينسخ تلك المجلّدات وينقلها أربع مرّات. ثمّ صاغ لها أيضًا، بيده هو، رسوم الحروف وأُمّهاتها وقوالبها وطوابعها المطبعيّة، للعربيّ والسريانيّ، ممّا أكّد أنّه كان، فوق عبقريّته العلميّة، ذا عبقريّة صناعيّة آلاتيّة. وقد كلّفه كلّ ذلك أكثر من ثلاثين ألف ليرة[1].

عمل الصِّهْيَونيّ في نظر العلماء

هذه الأعمال كان لها قدرها الكبير عند رجالات العلم والسياسة، في السلكَين الكنسيّ والعالميّ بفرنسة وغيرها؛ وعدُّوها عظيمة جبّارة. وأوّل من أكبرها وقرّظها كان مؤتمر الإكليروس الفرنسيّ. فإنّه عندما كان منعقدًا مرّة أخرى في باريس، في أواخر عام ١٦٣٥، رأى ميشال "لجاي" أنّ الفرصة سانحة ليُطلع رؤساء دينه في وطنه على أهميّة مشروعه، وجسامة نفقاته عليه. فتقدّم من ذلك المؤتمر، بواسطة أحد النّواب المسيو لويس أوديسينك. فأعاره المجمع الإكليريكيّ اهتمامًا، وعهد إلى ثلاثة مطارنة من أعضائه بفحص المشروع ودرسه مَليًّا، مكلِّفًا إيّاهم وضع تقرير عنه، يصير الإجراء بموجبه. فقام أولئك المطارنة بالمهمّة كما ينبغي، ووضعوا باللاتينيّة تقريرهم المطلوب، مؤرَّخًا في ٢٤ كانون الثاني سنة ١٦٣٦، حافلًا بالإكبار لغيرة "لجاي" وسخائه الكبير على المشروع. ثمّ كالوا القدر الكبير من المديح والتقريظ لجهود الصِّهْيَونيّ فيه. وقد أمرت هيئة المؤتمر بإدراج ذلك التقرير بين مقرّرات اجتماعاتهم حينذاك. وجاء الأب لو لونغ فأثبت نصّ ذلك في كتابه الذي بيدنا، من وجه ٣٧٩ وما بعد. أمّا ما خصَّ الصِّهْيَوني من ذلك فهذه ترجمته:

"... إنّ الاسفار الموسويّة لم تكن قبل العلّامة الصّهيونيّ معروفة في أوروبّة أنّها صادقة الترجمة. وكانت الثقة بأنّها مأخوذة عن أصلها السامريّ ضعيفة، لعدم وجودها في الفولكاتا (ترجمة القديس إيرونيموس للكتاب)، والنصّ الذي كان يعرفه العلماء لم يكن مُعتَبرًا نصًّا علميًّا يُركن إليه. لذلك أخذ الصِّهْيَونيّ على عاتقه ترجمتها عن السريانيّ والعربيّ، المأخوذة نصوصها عن المخطوطات القديمة العهد جدًّا؛ فترجمها إلى اللاتينيّة بصدق محسوس وبيان فصيح. وضبطَ نصوصها الأصليّة من العربيّة والسريانيّة مع أشكالها وحركاتها وضوابطها. ممّا أثار إعجاب علماء اللسان اللاتينيّ، واللسانَين السريانيّ والعربيّ أيضًا"[2].

والعلّامة الأب موران، المعهود بين المشتغلين في البوليكلوت الباريسيّة، وقد عُني بالنصّ السامريّ فيها وترجمه إلى اللاتينيّة، فقال في معرض كلامه عن أسفار موسى الخمسة، في اللاتينيّة، ما ترجمته: "... واليوم عام ١٦٣١ يقوم ميشال "لجاي" بطبع الكتاب المقدّس في السريانيّة والعربيّة مع ترجمة كليهما إلى اللاتينيّة، وقد وضعها العالِم الكبير الأب جبرائيل الصِّهْيَونيّ دكتور في اللاهوت وأستاذ من

[1] لولونغ في المحل المذكورة. وميشو (Michaud: ***Bibliographie Universelle***) ١٥: ٣٢٦.

[2] لولونغ، ٣٢٨ و٣٨٣

قبل الملك للغات الشرقيّة في باريس منذ ١٥ عامًا، وهو ماروني من جبل لبنان قد تلقّى علومه اللاهوتيّة في رومية، حيث برع في اللغة اللاتينيّة"[١].

وكذلك السادة العلماء: ليكو، ودي مويس، وفلافيني، من الأساتذة الملوكيّين في جامعة باريس، قد فحصوا المجلّدات الخمسة التي اشتغلها زميلهم الصِّهْيَونيّ في البوليكلوت المعهودة، ودرسوها فصلًا فصلًا، وأقاموا لها التمداح والتقريظ إلى حدود قصيّة، قادرين قدر علّامتنا الصِّهْيَونيّ فيها. ووضعوا لدرسهم هذا تقريرًا واسعًا ذيّلوه بتوقيعهم ومهروه بأختامهم. وإليك ما قاله دي فلافيني أستاذ العبريّة الملوكيّ: "مهما مدحنا الصِّهْيَونيّ لا نفيهِ حقَّه، من أجل عمل أتاه، هو في غاية الأهميّة والكمال، تتجلّى فيه الدقّة والإتقان، ولاسيّما الأمانة المرعيّة في كلّ ترجماته"[٢].

ولما جاء العالم الإنكليزيّ المشهور، المستر بريان والتون السابق الذكر، ليطبع بوليكلوت إنكلترة البروتستانتيّة، التي تمّ طبعها في لندن عام ١٦٥٧، في تسع لغات، استعان بأعمال علّامتنا الصِّهْيَونيّ، في بوليكلوت باريس، وتأثّر منهاجه في الدرس والترجمة والتنسيق والتدقيق والمقارنة، وأخذ عنه الشيء الكثير ممّا قد اعترف له به في مقدّمته على بوليكلوت لندن. وهذه ترجمة ما كتبه مقرّظًا الصِّهْيَونيّ: "وإنّ هذا الرجل العظيم بذل أتعابًا شاقّة، وأفضالًا جزيلة كثيرة الفائدة لكلّ مَن يرغبون في أن يتضلّعوا من اللغات الشرقيّة والأسفار المقدّسة. ومَن لم يقرّ له بالفضل كان غامِطًا الإحسان. ونحن نعترف بأنّ أعماله في بوليكلوت باريس هي مِن آيات الدنيا وأعاجيبها. ونرى أنّه يلزم الجميع أن يؤدّوه شكرًا لا ينقضي"[٣].

وكذلك كلّ الذين ترجموا التوراة إلى عدّة لغات، استعانوا ببوليكلوت الصِّهْيَوني الباريسيّة، واستناروا بمنهاجه ومعارفه[٤]. ثم جاء المسيو كولومياه، أحد أعيان فرنسة العلماء، وتأثّر والتون في إكباره الصِّهيونيّ. قال في صفحة ٢٦٣ من كتابه Gaule Orientale ما ترجمته: "إنّ الصِّهْيَونيّ عالِم متضلِّع من اللغات الشرقيّة، ويمكنه الوقوف في صفّ واحد مع الذين شرّفوا فرنسة بعلومهم وأنواع معارفهم"[٥].

اختلاف الصِّهْيَونيّ والمحامي "لجاي"، أسباب الخلاف [وتطوّراته]

يظنّ القارئ الكريم أنّ الصِّهيونيّ كان، في ذلك المشروع العلميّ القدسيّ، ناعمًا براحة الفكر وطمأنينة البال، موفورة له كلّ أسباب التعزية والهدوء، ممّا هو ضروريّ جدًّا لكلّ من يخوض الميدان لأمثال مشروع البوليكلوت الباريسيّة. أمّا التاريخ الصادق فيقضي على ذلك الظنّ، إذ تنكشف لنا طواياه عن خلاف هامّ حدث بيت الصِّهْيَونيّ والمحامي البرلمانيّ "ميشال لجاي" مَثَّلَتْ فيه الغايات أدوارًا

[١] لولونغ، ٤٦٧.
[٢] لولونغ، ١٨٢، ٤٧٧.
[٣] لولونغ، ٢٠٤– ٢٠٨.
[٤] كتاب دي لاروك De La Roque المطبوع عام ١٧٢٢، ٢: ١٢٤.
[٥] لولونغ، ص ١١٨.

عصيبة استهدفَ فيها المترجَم لكبير أمر من التضحية براحته وكرامته وماله وحقوقه وجهاده، حتّى أدّت به المسائل إلى غياهب السجن، يتكبدَّ مرارته ثلاثة شهور كاملة.

وبين يدينا قدر كبير من المعلومات يتضمَّن عدّة آراء وروايات لأسباب ذلك الخلاف. وكلّها ضد الصِّهيونيّ تؤيّد جانب خصومه، [...] وتلك الروايات هي صادرة عن أنطوان فيتري الطَّباع المعهود، الذي عُرِفَ بعدائه المشهور للصِّهْيَوني. ومزاعمه فيها تتلخصّ بأنّ الصِّهيونيّ كان بطيئًا جدًّا في العمل، وأنّه كان يشوّش فيتري في أعمال الطبع، ولا يعرف في شغله أيّ نظام أو متابعة وانسجام... وقد عُرِف قصدُ هذا الماروني، وهو عرقلة المشروع ليُرغِمَ أصحابه على مجاراته في كلّ ما يريد [...].

وغير ذلك كثير وكثير تجده، مع ما تقدَّم، في مقال هجائيّ طويل لأنطوان فيتري، نشره مطبوعًا عام ١٦٤٠، وقد حشاه طعنًا وقذفًا ومثالبَ بالصِّهْيَونيّ، ردًّا على دفاع أصدقائه الذي نشروه بالطبع تبريرًا لصديقهم المترجَم ممّا أُلصقَ به[١].

على أنّه مهما يَكُنْ من شيء، فوقوع الخلاف بين المحامي البرلمانيّ "ميشال لجاي" والعلَّامة الأب جبرائيل الصِّهْيَونيّ هو أمر أكيد. وقد أكّد الخصوم أنّ أسباب ذلك الخلاف بطء المترجَم في العمل، وتماديه في الخمول والكسل. أمّا نحن فقد تأكَّد لنا، ممّا بيدنا من آثار حول ذلك، أنّ "لجاي" غرَّه طمع الربح فانتحى الشحّ والتقتير في مكافأة الصِّهْيَوني إلى درجة بليغة، ولا سيّما أنّ المترجَم لم يرتبط مع "لجاي"، المحامي الوجيه، ارتباطًا رسميًّا كتابيًّا في تجنُّده لعمل البوليكلوت، وأنّ الصِّهْيَونيّ لمّا أوشك أن يُنهي العمل، قام "لجاي" يحاول الجري بمسوّلات نفسه؛ وجابهه المترجَم بطلب حقوقه فحجز على المخطوطات، ممتنعًا أن يسلّمها أحدًا قبل ضمانة حقوقه وتعبه، فكان الخلاف الذي استحكمت شؤونه بين الرجلين، وأدَّت بأحدهما، "لجاي"، إلى نفض اليد من الصِّهْيَونيّ، وعزمَ على مقاطعته كلّيًّا عام ١٦٣٧، وراح ينشد رجلًا من أنداد الصِّهْيَونيّ علمًا وأهليّة ينجز له ما بقي من البوليكلوت، فكتب إلى رومية يفتّش عن ذلك الرجل. وبعد كثير من المساعي [...] ورده جواب من الأب موران يؤكدّ له أنّ في رومية رجلًا من أمثال الصِّهْيَونيّ جدارةً، وهو تحت الطلب، وأنّ هذا الرجل لديه كلّ الأصول والوثائق اللازمة من المخطوطات الصادقة، وأنّه بإمكانه إنهاء كلّ ما بقيَ من البوليكلوت في أقلّ من ستّة شهور[٢].

[١] وقد أثبت لولونغ مقال فيتري المذكور، في ٢٩ صفحة من كتابه الذي بيدنا. [ولمزيد من التفاصيل حول هذا الخلاف تُراجَع مقالة الأب طنّوس ذاتها، في المجلّد ذاته من مجلّة المشرق، ص ٢٨٥].

[٢] لولونغ، ١٥٨.

الصِّهيَونيّ في السجن

ترنَّح المحامي "لجاي" لجواب الأب موران نصيره، وأرسل يستحضر ذلك الرجل (وهو إبراهيم الحاقلاني كما سيجيء) من رومية. [...] وعلى الأثر رفع الشكوى على الصِّهْيَونيّ إلى مجلس الشورى في البَلاط، مدّعيًا " أنّ هذا الماروني نال من "شرفه وماله وكرامته بمكايد شائنة.. وأنّه خرج على العهود التي أخذها عليه. وأنّه يأبى إتمام البوليكلوت... وأنّه غير قدير على مشروع كهذا.!!!".

وصادفت عريضة "لجاي" قبولًا في ذلك المجلس، وقد شدَّت أزره فيها وساطات رئيس أساقفة بوردو، والمركيز دي سورديس، ومطران ريمس، وعلى رأسهم الكردينال دي ريشليو، الوليّ الأوّل لكلِّ وجوه الحلّ والربط في فرنسة. فحملوا المجلس المذكور على إصدار رخصة باعتقال الصِّهْيَوني. ثمّ استصدروا من الملك مرسومًا عاليًا بإجابة شكوى "لجاي" المحامي البرلمانيّ، والحجز على ظنينه الصِّهْيَونيّ. وهكذا في أواخر كانون الثاني عام ١٦٤٠ كان العلّامة الصِّهْيَونيّ سجينًا في حصن غابة فنسين (Vincennes). ثمّ أصدر الكردينال دي ريشليو الوزير أمره حالًا بضبط كلّ ما للصِّهْيَوني من أوراق ومجلّدات، وهي الشيء الكثير. وعلى الأثر أيضًا صار تسليمها إلى عدوّه الألّد الطبّاع فيتري، الذي كان مهيِّئًا لها جيشًا من النَّساخ فنسخوها إذ ذاك بالإسراع ليتمّ طبعها عندما يأتي من رومة إبراهيم الحاقلاني المنتظَر.

خروج الصِّهيَونيّ من السجن وموقف لجاي حياله

ولم يكن الصِّهْيَونيّ هَمْلًا ولا رخيصًا في باريس. بل كان وجيهًا بارزًا يعايش ألمع الشخصيّات. وما كاد يشيع نبأ اعتقاله ودخوله السجن حتّى ضجّت الأوساط هناك، وهبّ لنجدته وإنقاذه أصدقاؤه وقادروه، وهم كثر ومن خاصّة باريس البارزة، ولا يُستهان بنفوذهم ووجاهتهم: أمثال المطران دي شافينيي، والسادة سيمون دي مويس المعلّم الشهير، وفاليريان دي فلافينيي، وكلهم من دكاترة السوربون وأساتذتها إذ ذاك. [...].

وما فتئ أولئك العلماء يسعون للإفراج عن زميلهم حتّى أقنعوا الكردينال دي ريشليو وحملوه على النزول عند وساطتهم وبراهينهم؛ فلم يمرّ على سجن المترجَم ثلاثة شهور حتّى استصدر الكردينال الوزير أمرًا ملكيًّا بالإفراج عنه.

أمّا الأخصام فإذ رأوا أنّ الإفراج عنه صار أمرًا واقعًا، خافوا أن ينصرف لمناوأتهم في تقديم ترجماته الخطّيّة للطبع، وأقنعوا الكردينال الوزير بمخاوفهم فطلب من أنصار الصِّهْيَوني كفالة رسميّة في ذلك، قبيل استصدار المرسوم الملكيّ بالتخلية عنه. وللحال انتصب ستّة من أولئك الأنصار، وكتبوا على نفوسهم كفالة شرعيّة عند المحرّر العدليّ ضمنوا بها الصِّهْيَوني لدى الملك. وكتّبوه هو أيضًا تعهُّدًا خطيًّا وقّعه باسمه في العربيّة وهو بعد في السجن، وكفله فيه المطران دي شافينيي.

وبُعيد ذلك استصدر الكردينال الوزير مرسومًا من الملك بإخلاء سبيل الصِّهْيَونيّ. وخرج الصّهْيَونيّ من سجنه نهار عيد الفصح في ٨ نيسان من تلك السنة (١٦٤٠)، وأقبلَ بعد انعتاقه على "لجاي" يُلحف عليه بإتمام طبع الباقي من الترجمات قيامًا بعهدِ كفلائه المحبّين، وعهدِهِ هو أيضًا للملك. لكنّ "لجاي" قد أخذ منه الحذر والتخوّف من أنّ هذا الماروني ترافقه الذكرى الأليمة لما ناله بسببه من بليّة، فينتقم لنفسه بأن يدسّ في تلك المطبوعات شيئًا من التوافه والمستقبَحات، إفسادًا للمشروع عليه، وتضييعًا لجهوده ونفقاته

الباهظة في سبيله. ولجاي يتوقّع من الصِّهْيَونيّ أكثر من ذلك، بعد أن أضاع ثقته به إلى أقصى الحدود. ولذلك أخذ يحتال جهده ليؤجّل الطبع، ريثما يتوفّق لرجل جدير يفحص أعمال الصِّهْيَونيّ وترجماته، فيتّقي بذلك حسد الأجانب وشماتة اليهود به والأراتقة ونقدهم. ولكنّ جانب التأييد للمحامي "الجاي" قد ضعف، بعد إنقاذ الصِّهْيَونيّ من السجن بفضل أنصاره الميامين، وصار يتعذّر عليه (لجاي) أن يجد من أنصاره في باريس ذلك الشخص للفحص المطلوب، وبعد ما وجد من إعراض دكاترة السوربون عنه وتأييدهم لخصمه المترجَم. إذن صار لزامًا على لجاي أن ينتظر مجيء العلّامة إبراهيم الحاقلاني إلى باريس للأغراض المتقدّمة.

الحاقلاني في باريس :الموقف بينه وبين الصِّهْيَوني

طبيعيّ أن يكون مجيء العلّامة إبراهيم الحاقلاني إلى باريس، في تلك الظروف، غير مرغوب فيه لدى العلّامة الصِّهْيَونيّ ولو كان وطنيَّه اللبنانيّ وابن جلدته المارونيّ ولاسيّما لأنه آتٍ على نفقة "الجاي" ولأجله لكي يكون عونًا له على الصِّهْيَونيّ. ولكنّ الأحداث التالية ستحقّق الخلاف [أي خلاف ما كان متوقَّعًا من خصام سيحلّ بين الصِّهْيَونيّ والحاقلانيّ]، فيتبيّن شرف نفس الحاقلاني الكبير ومرونته في ذلك الموقف الحرج بين "الجاي"، المستنصِر به مغدقًا عليه الأموال كالمطر المدرار؛ وبين الصِّهْيَوني ابن بِجْدَتِهِ ورفيقه على مقاعد الدرس في رومية. وقد أوقف إبراهيم العقل الحكيم العالي يوفّق بين العاطفة الأهليّة الوطنيّة من جانب الصِّهْيَونيّ والأرباح المادّيّة الطائلة من جانب لجاي، ممّا متّعه بقدر الأوساط الباريسية وإجلالها، وأكسبه شهرة وسيعة هناك سجلّها له تاريخ فرنسة إلى جانب ما سجّل للصِّهْيَونيّ في صفحات علمائها الأعلام.

وبما أنّ إبراهيم هذا كان منوط الأمر حينذاك بجامعة البروبغندة التي هو من أساتذتها، اقتضى أن يستحصل من دائرتها عطلة سنة كاملة. وغادر رومية إلى باريس في منتصف فصل الشتاء عام ١٦٤١. وقد كتب هو، في مقدّمة له على أحد مؤلّفاته، أنّه في باريس إذ ذاك بإذن من الحبر الأعظم والكرادلة، وبأمر من الكردينال دي ريشليو. على أنّ زميله الصِّهْيَونيّ رابَهُ ذلك فطلب إليه إثباته بالبيّنات، فأجابه الحاقلاني:

"إنّني لـمّا اقتبلت الأمر بالمجيء إلى فرنسة وأنت نفسك ألححت عليّ بذلك مرارًا في رسائلك العديدة، حصلت على سنة عطلة كاملة من جمعيّة نشر الإيمان المقدّس، حيث كان قداسة البابا إذ ذاك. وقد أكدوا عليّ الرجوع إلى رومية حتمًا عند نهاية عطلتي هذه. وكان ذلك بمرسوم رسميّ ليس هو بيدي الآن. وإذا كنتَ غير مصدِّق ما أقول، فسأريك المرسوم بعينه بعد شهرين"[1].

ومن الكتب والأصول الخطّيّة التي جاء بها الحاقلاني إلى باريس كانت نسخة الكتاب المقدّس المعهودة لسركيس الرزي، مطران دمشق، وكانت على غاية من الكياسة في خطّها، وصدق نصّها السريانيّ، وضبطها. وقد أوصى بها ذلك المطران عند موته في رومية عام ١٦٣٨ مع كلّ مقتنياته، إلى إبراهيم المذكور، عربون محبّة شديدة كان سيادته يحفظها له.

وما إنِ استقرَّ المقام بالحاقلاني في باريس حتّى عهد إليه "الجاي" بفحص كلّ ما قد طبع الصِّهْيَونيّ من البوليكلوت، ومعارضة النصوص السريانيّة فيها بنسخة الكتاب الرزّيّة. وكان ذلك أيضًا بتصديق الكردينال دي ريشليو وأمره[2].

[1] لولونغ، ١٧٠-١٧١.

[2] لولونغ، ١٧٢.

فقام بذلك إبراهيم القيام المنتظَر، وقد كلّفه العمل خمسة شهور. ووضع تقريرًا واسعًا عن دروسه ومعارضاته، ملأه بالمديح والإطراء لكلّ ما عمل الصِّهْيَونيّ في بوليكلوت باريس وغيرها، وقدّمه إلى أولياء الأمر مؤرَّخًا في ١٥ كانون الأول عام ١٦٤١.

وعقيب ذلك الفحص تعاقد لجاي والحاقلاني على إتحاف الجمهور بما كان ينقص البوليكلوت من أسفارٍ لجعلها كاملةً. واتفقا على ترجمة ذلك إلى اللاتينيّة، إذا تمنّع الصِّهْيَونيّ عن تقديم ترجماته إلى الطبع. أمّا تلك الأسفار المتعاقَد عليها فهي: سفر الملوك الرابع، وعزرا الكاتب، وأستير، وطوبيا، ويهوديت، وسفر المكابيّين الأول والثاني. هذه الأسفار كان الصِّهْيَونيّ قد جهّزها بترجماتها اللاتينيّة للطبع، فكفى الحاقلاني مزاحمته عليها. ويقول دي فلافينيي إنّ الصِّهْيَونيّ قد أدّى خدمة جميلة إلى الحاقلاني، إذ أعاره نصوص سفر راعوت، فطبعه إبراهيم باسمه هو[١].

وقد كادت الأمور إذ ذاك تؤدّي إلى خلاف بين الصِّهْيَونيّ والحاقلاني. لكنّ الأخير تلافى ذلك بحكمته، فدوّن في ٥ آب من تلك السنة (١٦٤١) اتفاقًا بينه وبين الصِّهْيَونيّ ولجاي يحمل تواقيعهم، وفيه رضي الصِّهْيَونيّ بأن يُتمّ الحاقلاني سفر المكابيّين الثالث، خلوًّا من الترجمة اللاتينيّة، وبأن تنتهي الطبعة بسفر الملوك الرابع. وهكذا عرف الحاقلاني العظيم كيف يحافظ على رضى الصِّهْيَونيّ وفضله الكبير في بوليكلوت باريس. ومن عمل إبراهيم أيضًا، في ذلك المشروع، ترجمة أسفار: أستير، وطوبيّا، ويهوديت، من السريانيّ والعربيّ إلى اللاتينيّ، لأنّ نُسَخَ هذه الأسفار كانت تنقص الصِّهْيَونيّ، على ما فات ذكره.

وإذ انتهت مأذونيّة الحاقلاني المعهودة بالإقامة في باريس، عاد إلى رومية معقود اللواء، مجلّيًا في كلّ ما انتُدب له، شأنه في كلّ مهمّاته. وكانت إقامته في باريس حينذاك سنة واحدة فقط: ١٦٤١–١٦٤٢. على أنّه قد عاد إليها عام ١٦٤٥، وقطنها إلى عام ١٦٥٤ قاضيًا تلك الحقبة خلفًا للصِّهْيَونيّ، عُقيب وفاته، على منبر التعليم في جامعة السوربون، ناشرًا بالطبع نتاج قلمه من ترجمة وتأليف: فإنّه عام ١٦٤٦ ترجم مقدّمة المجمع النيقاويّ العربيّة إلى اللاتينيّة، وطبعها. وعام ١٦٤٧ طبع دفاعَين ردّ بهما على فلافينيي نصير الصِّهْيَونيّ. وسنة ١٦٥١، طبع كتاب "علم التاريخ الشرقيّ" الذي ظهر بعدئذٍ، للمرّة الثانية، في اللوفر عام ١٦٨٥. وسنة ١٦٦١ طَبَعَ في فلورنسة كتاب أرخميدس في علم الجبر.

هذا كلّ ما ذكر لولونغ عن الحاقلاني في باريس، وقد رأينا أن نثبت مؤدّاه هنا: أوّلًا لِما له من علاقة مكمِّلة للكلام عن الصِّهْيَونيّ؛ وثانيًا أنّ فيه نقاطًا لم يهتدِ إليها من سبقوا إلى البحث عن الحاقلاني العظيم.

أيّام الصِّهْيَونيّ الأخيرة ووفاته

تفيد المعلومات التي بين يدينا أنّه أنهى أعماله في البوليكلوت على آخر مرحلة من القوّة والعافية، منهوك الجسم خائر العزيمة. وقد أدّى به الدرس والتدريس والتحبير والتأليف إلى انطفاء النور في عينيه[٢]. وجرَّ ذيلَ حياته الأخير أعمى ضريرًا. وما زال العجز يتفاقم عليه حتّى أعيى جسمَه عن حمل نفسه الكبيرة، وعلومه الغزيرة.

[١] المرجع الأخير عينه.

[٢] لولونغ، ص ٢٠٠، وميشو (Michaud: ***Bibliographie Universelle***) ١٥ و٣٢٦.

وكانت وفاة القسّ جبرائيل الصِّهْيَونيّ في باريس سنة ١٦٤٨[١]، مغمورًا بحسرات محبّيه، وأسف عارفيه وقادريه من أرباب العلم، وأُولي النبل والنفوذ الذين كانوا على أوثق العلائق به[٢].

[وممّا هو جدير بالذكر، في الختام]، أنّ أولياء الأمور في باريس قدّروا فضل الصِّهْيَونيّ على عاصمتهم وبلادهم، وأقرّوا به بعد موته إقرارًا صريحًا مؤبَّدًا إلى ما شاء الله. وقد نقشوا اسم "العلّامة القسّ جبرائيل الصِّهْيَونيّ الماروني الإهدنيّ الكَرَميّ" على بلاطة فوق المدخل الكبير لجامعة السوربون الملكيّة، المعروفة اليوم بكلّيّة باريس، وذلك بين أسماء العلماء الذين توالوا على منابر الجامعة منذ نشأتها[٣]. وبين تلك الأسماء أيضًا اسم العلّامة الماروني الكبير إبراهيم الحاقلاني، خليفة الصِّهْيَونيّ على منابر الجامعة[٤].

ولم يغفلْ مواطنو الصِّهْيَونيّ عن تكريمه. فقد تبرّع السيّد بطرس الشيخة الدويهي، من تجّارنا اللامعين في المكسيك، بأكلاف تمثال جميل نُصِبَ في إهدن سنة ١٩٣٩ تخليدًا لذكراه.

[١] لولونغ، ص ٢٠٠.

[٢] دي لاروك في كتابه المنوّه به، جزء ٢، ص ١٢٤.

[٣] قد أسّسها في منتصف القرن ١٣ روبير دي سوربون من مشاهير كهنة فرنسة ونبلائها، والمعرّف الخاصّ لملك فرنسة القدّيس لويس. وحملت مؤسّسته اسم عائلته من بعده، وهي من أعظم الجامعات في العالم، وأشهرها.

[٤] رستلهوبر [René Ristelhueber قنصل فرنسا في بيروت] في ***Traditions Françaises au Liban*** أي **تقاليد فرنسة في لبنان**، ص ١١٦ و١١٧.